وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإسلام ساحة المعركة بين الليبراليين والأصوليين

طه أحمد لمخير

١٥/٠٧/٢٠٠٨

التغيير عندنا في المنطقة العربية له اتجاهان، أحدهما يدفع إلي الأمام، والآخر يجر إلي الوراء. ففي الدول العربية تيارات متقاربة متباعدة، تدفع باتجاهات مختلفة، وهي في جملتها تنقسم إلي قسمين، أحدهما: الإسلاميون بطوائفهم وهم الأكثر عددا، ومن يتعاطف معهم ويكثر سوادهم من الوطنيين والقوميين، والآخر: فريق الليبراليين ومن يناصرهم من المثقفين، وأرباب الفكر الحر، وبعض من له ميل إلي الحرية في السلطة، وهم الأقل عددا.

والغلبة اليوم في الصراع بين الفريقين هي للإسلاميين، وهي غلبة شعبوية عاطفية وعظية، حيث استغل الإسلاميون وطوال عقود كل المواقع الدينية لتمرير خطابهم للعامة، وإكراههم إكراها لا شعوريا علي اعتناقه، فحشدوا الخطباء والدعاة والمفتين، واستغلوا باحات المساجد، وكتب التراث، وأولوا النصوص المقدسة بما يوافق أيديولوجيتهم السياسية، وجندوا المصطلحات والآيات القرآنية وما لها من مكانة و دلالة معنوية لتنفير الجماهير عن خصومهم بإسقاط مدلولاتها عليهم، فهم أبدا المصلحون المنقذون الطاهرون الذين بعثهم الله علي حين غرة من الرسل إلي المسلمين لينتشلوهم من وهدة السقوط، وغيرهم الضالون المضلون الجهنميون، الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ويلعنهم في كل حين.

وهذه النظرة الطهرانية إلي الذات، هي التي خلقت في المجتمع هذا الاحتقان الذي نعيشه علي جميع المستويات، حتي صارت مكونات المجتمع تتعامل مع بعضها بمنطق إن لم تكن معي فأنت ضدي، وهذه المقولة إن ساغت في السياسة فكيف تسوغ في الأفكار والآراء.

ولم يكن الإسلاميون ليصلوا إلي هذه الشعبية الزائفة لو أنهم حيدوا الدين، واعتمدوا برنامجا واقعيا تنافسيا، يغالبون به الليبراليين والحداثيين، لكن هيهات ـ لمن غمس عقله في حواشي ابن عابدين ومختصر خليل الذي يفيض في حكم أكل الضفادع والحمر الوحشية ـ هيهات لهؤلاء أن يكونوا أهلا لأن يعيشوا في هذا الزمن، فضلا عن منافسة أهله في ميادين السبق.

لكن علي الرغم من كل هذا فإن الليبراليين المدعومين ماديا وإعلاميا من الغرب، قد حققوا عدة مكاسب سياسية واجتماعية وفكرية لا يستهان بها، علي امتداد الوطن العربي، وعلي قدر اكتساح الإسلاميين، علي قدر ارتفاع سقف الشجاعة النقدية التي بات يتمتع بها اللبراليون، فقد أضحوا ينتقدون قضايا غاية في الحساسية لم يكن بالإمكان الخوض فيها من قبل، وهي متعلقة بما يعرف بالثالوث المحرم: الدين والسياسة والجنس، فبالنسبة للحقل الديني، تكلم اللبراليون بقدر كبير من الحرية حول المناهج التعليمية، وخصوصا مادة التربية الإسلامية، وما تطرحه من مواضيع تخالف قيم التسامح الديني، والإخاء الإنساني، كمسألة الولاء والبراء والتكفير وحد الردة وغيرها، وكتبوا ولأول مرة في صحف سعودية رسمية مقالات تخالف الفهم الديني الوهابي الرائج في تلك البلاد لمعاني الشهادتين، وكانت مقالات مثل هذه تجني علي حياة كاتبها.

وفي مجال حقوق المرأة، حققوا تقدما ملحوظا صفقت له الدنيا في بعض الدول الخليجية، كالكويت مثلا حيث نالت المرأة حقها في التصويت بعد حرب ضروس ضد الإسلاميين والمحافظين، ثم أتاحت لها الحكومة فرصا للعمل في القوات المسلحة ووزارة التربية، وبلغت نسبة الجامعيات المتخرجات من النساء سبعين في المائة، وثلاثين في المائة من إجمالي اليد العاملة الكويتية. وفي عمان عين السلطان أول امرأة تشغل منصب سفير، وفي المملكة العربية السعودية بلغت نسبة النساء المستعملات لخدمة الانترنت ثلثي المستعملين، وفي البحرين عادل انخراط المرأة في السوق التجارية ثلاثين بالمائة مساوية بذلك المرأة الغربية في هذا المجال.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لكن في الجهة الأخري نري تزايد الإقبال علي الحجاب في مصر مثلا، وتراجع القوانين التي تحفظ حقوق المرأة بسبب تزايد القوانين المؤسلمة للمجتمع، نتيجة ارتفاع شعبية الحركات الإسلامية، ورغبة الأنظمة في كسب تأييد الجماهير. ولذلك نري كثيرا من الأنظمة العربية جمدت مشروع التغيير، بل عكست اتجاهه ليأخذ طريقا إلي الوراء لإرضاء الإسلاميين الذي يشكلون تهديدا حقيقيا لها، علي حساب الليبراليين والمدافعين عن حقوق المرأة، وفي المغرب شهدنا محاكمة وتغريم مجلة نيشان، علي أثر نشرها لمقال حول النكات التي يتداولها المغاربة حول الدين والسياسة والجنس.

في ظل هذه المدافعة الشديدة بين الإسلاميين والليبراليين من جهة، وبين الليبراليين والسلطة من جهة أخري، وبين مد شعبي كاسح وصحوة إسلامية مغيّبة، مشحونة بأفكار لا تقبل الحوار، ولا تعرف إلا لغة أسلِمْ تسلمْ، فإن اللبراليين ودعاة الحرية والحداثة، لم يبق لهم غير ملجأ مكين، وخندق حصين، هو :الإسلام نفسه.

لقد رفع جمال الدين الأفغاني يوما شعاره الشهير في مواجهة الظلامية وما يدور في فلكها من الاستبداد والاستعباد فقال: لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين، وهو ما سماه تلميذه محمد عبده بسنة الأفغاني القويمة.

هذه المقولة تصلح أن تكون إستراتيجية يعتمد عليها الفكر الليبرالي العربي، وهي إستراتيجية مبنية علي الدعوة إلي مبادئ الإسلام المحترمة، هذه المبادئ الإنسانية التي تقوم في وجه المعاملة التقليدية للمرأة في المجتمعات العربية، والمنادية بالمقاربة الإسلامية لموضوع المرأة من منظور متنور متحرر من سطوة التقليديين، فهناك نصوص كثيرة من منابع الإسلام الأصلية يمكن اعتمادها كأساس لدحض فكرة التفريق بين الجنسين مثلا، أو الدلالة علي الأدوار السياسية الهامة التي لعبتها المرأة في صدر الإسلام، وغيرها من الأمور الكثيرة التي أهملها الليبراليون، وقد تكون يوما عاملا خطيرا لإحداث تغيرات جذرية في البنية الفكرية للمجتمعات العربية .

وكي تنجح هذه الإستراتيجية وتؤتي أكلها، ينبغي أن يتوفر في الداعية اللبرالي شرطان أساسيان:

الأول: أن يوسع ثقافته الإسلامية ونعني هنا معرفته بمبادئ الإسلام، ومعطياته الأساسية، قبل نشوء المذاهب والمقالات التي حمّلته مفاهيم مغلوطة عليه، رسختها تراكمات السنين والأحداث. وهي مبادئ سهلة يسيرة، تبدي مدي جسامة التحريف الذي طرأ علي الفكرة الإسلامية الأولي.

الثاني: دراسة شبهات الإسلاميين حول القضايا الأساسية التي يدندنون حولها والتي هي مثار الجدل واصطدام الآراء، ومن ثم الرد عليها ردا من جنس كلامهم الذي يفهمون، وبمصطلحاتهم التي يستعملون، حتي تقطع الرأس الفاسد في الدين بسيف الدين.

إن الخطأ الذي وقع فيه الحداثيون عموما هو أنهم تعاملوا مع التراث الإسلامي بمنطق الأغراب عنه، المتبرئ منه ابتداء، لا الممتلك له، فغلبهم الإسلاميون الذين قادوا المعركة تحت رايته، علي أساس أنهم حماته وأهله، والذي يشعر أنه يمتلك شيئا فإنه يستميت في الدفاع عنه. والحق أنه علي علاته تراث مشترك، تراث هؤلاء وهؤلاء، وليس لأحد أن يدعي فهمه وامتلاكه دون غيره، كما أنه ليس من سلامة النظر وعمق الفكرة التبرؤ منه جملة، فيدك منك وإن كانت شلاء .

أستاذ جامعي، جامعة محمد الخامس

This file was downloaded from QuranicThought.com